

## النظرية ما بعد الكولونيالية: قلق الموقع وتشعب الجذور

## Post-Colonial Theory: Location Anxiety and the Divergence of Roots

1 ط.د. عدنان لكانوي

1 مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة محمد الشريف مساعديّة-سوق أهراس- الجزائر.

l.adnene@univ-soukahras.dz

تاريخ النشر: 2022/12/15

تاريخ القبول: 2022/09/11

تاريخ الإرسال: 2022/05/21

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى رصد بعض سياقات ومرجعيات "ما بعد الكولونيالية" بوصفها نظرية نقدية وسياسية، ما فتئت تتوسع وتشير النقاش في مجالات متعددة. ونظراً للموقع الذي تشغله في الخطاب الراهن؛ فليس غريباً أن تغدو محطّ اهتمامٍ كثيف من لدن المشتغلين بالفكر والتّقد وشتى مجالات المعرفة. ويعود هذا الاهتمام، من ناحية إلى فتوحات النظرية وتأثيراتها، ومن ناحية أخرى، إلى موقع الموضوعات الساخنة التي طرقتها؛ فطالما عمل أصحابها على تقويض السرديات والأساطير التي نسحتها المركزية الغربية، وعلى هذا الأساس، نتساءل:

- ما السياقات التي تمخّض عنها خطاب النظرية؟ وما مرتكزاتها المنهجية والمعرفية؟

كلمات مفتاحية: ما بعد الكولونيالية؛ الزنوجة؛ الاستشراق؛ دراسات التابع.

Abstract:

*The study aims at capturing some contexts and references of Post-colonialism, as a critical and political theory, which is expanding and rising intense debates in various fields. As it occupies a significant position in current discourse, it is not strange to say that it is of intense concern to scholars and critics in thoughts, criticism and different fields of knowledge. This interest is due, on the one hand, to the influence of the theory and its effects. On the other hand, it is because of some current debatable issues it dealt with. Advocates of this theory have often undermined the narratives and myths, highly valued by Western centrism. Hence, we wonder:*

*-What are the contexts that resulted in the discourse theory; its fundamental paradigm and epistemology?*

Key words: Post-colonialism; Negritude; Orientalism ;Subaltern Studies.

## 1. النظرية ما بعد الكولونيالية وارتباك المفهوم:

يشير مصطلح "ما بعد الكولونيالية" إلى مجال شديد التنوع والتعقيد، تشعبت في دائرته جملة من الحقول المعرفية متباينة المشارب والتوجهات، وعند الاقتراب من هذا المجال، يلوح السؤال الأول: ما الذي تعنيه ما بعد الكولونيالية؟ و-ربما- يكون السؤال الأفضل: كيف يمكن الحديث عن هذه النظرية رغم كونها تمتد وتتحرّك في جميع الاتجاهات؟ فهي تتقاطع بشكل رئيس مع علوم السياسة، والتاريخ، والأدب، والتحليل النفسي، والنظرية النسوية، والأنثروبولوجيا، وسوى ذلك.

مهما تعددت سمات النظرية، فإنّ أبرزها، حسب تعبير روبرت يانغ (R.Yung) هي السمة الموسوعية<sup>1</sup>؛ سمة منحت النظرية حيوية كبيرة، تولدت عن اتساع اهتماماتها، وكذا قدرتها على ولوج أغلب مجالات المعرفة؛ فهي، من جهة أولى، حصيلة تاريخ طويل، وبحث معرفي مستمرّ ومتزايد. ومن جهة ثانية، لم تتبلور على يد منظر واحد، بل أسهم كثيرون في تكوينها، وبالتالي، فليس من قبيل المبالغة القول بأن تحديد مفهوم قارّ للنظرية، يغدو أمراً صعباً ومستعصياً، إن لم يكن مستحيلاً.

لم تكن المفاهيم والتصوّرات التي صاغها منظرو ما بعد الكولونيالية واحدة، فقد عرفت اختلافات كبيرة نتيجة تباين التوجهات، والمرجعيات، ومواقع الاشتغال التي تحرك فيها المنظرون، ورغم ذلك، يمكن أن نلاحظ كيف وحّدتهم الالتقاء في نقاط مشتركة، من ضمنها كون "النظرية ما بعد الكولونيالية" تقوم على تفكيك الحدود والمحدّدات التي تقوم على الهيمنة، والتي تخلق علاقات قوة غير متكافئة، تنشأ على التقابلات الثنائية من قبيل "نحن، وهم" و"العالم الأول"، و"العالم الثالث" و"الأبيض والأسود" و"المستعمر Coloniser والمستعمر colonised وتبني هدفاً سياسياً أكثر تحديداً ألا وهو الخلخلة المستمرة للسلطة السياسيّة والثقافيّة"<sup>2</sup>.

على صعيد المصطلح، ليس بوسع الدارس أن يغفل ثلاث صعوبات أو مشكلات يطرحها هذا التركيب، تتعلق الأولى بمصطلح الكولونيالية أو الكولونيالي، وأمّا الثانية فتتصل بالبادئة "ما بعد" عينها، والثالثة بالمصطلح في صيغته المركبة.

عن الصعوبة الأولى، يشير المؤرّخ الأمريكيّ فريديريك كوبر (F.Cooper) إلى أن "مصطلح كولونيالي (Colonial) نفسه يحمل قصوراً يتجاوز خصوصيات كونه نظاماً تلاشي؛ لأن هذه التسمية

"كولونيالي" تربط تاريخ العالم الغربي-وهويته في الحضارة والتقدم- بتكوينه الاستعماري، فالكولونيالي يشير، قبل أي شيء آخر، إلى التمييز بين بعض الشعوب باعتبارها تحتاج إلى أشكال معينة من السيطرة والمراقبة<sup>3</sup> وهذا الوضع الكولونيالي لا يمكن تجاوزه كواقع تاريخي، بل إن إنكاره أو تحجيمه يغدو ضرباً من الطمس.

وأما الصعوبة الثانية، فتتعلق بالبادئة (Post) التي يتوجس بعض النقاد من توظيفها نتيجة الالتباس والتناقض الذي تحمله، حيث يطرح السؤال: هل بمقدورنا حقاً أن نتحدث عن فكرة ما موجودة "الآن" ونصيفها بكونها ستأتي "بعد" الآن؟

إن البادئة "ما بعد" (Post) "لم تُثر نقاشات في مصطلح "ما بعد الكولونيالية" فحسب؛ وإنما في باقي المصطلحات والميادين الأخرى على غرار "ما بعد البنيوية" و "ما بعد الماركسية" و "ما بعد النسوية" وغيرها، ولعل الإشكال الذي تنطوي عليه في مصطلح "ما بعد الكولونيالية" يغدو متعدّد الأبعاد.

يرى إيهاب حسن (I.Hassan) أن المصطلحات التي تحتوي على البادئة "ما بعد" تعاني من عدم الاستقرار وشديدة الارتباك<sup>4</sup> لأنها تنطوي على ضدها ونقيضها بداخلها، ووفق التصور نفسه، يقترح الفيلسوف الفرنسي جون فرنسوا ليوتار (J.F. Lyotard) استبدال البادئة ما بعد (Post) بمصطلح إعادة (Re) حيث يرى "كم هو عبثي كل تحقيب للزمن الثقافي بمفردات (ما بعد) و(ما قبل)، سابق ولاحق، لسبب كونه يترك وضعية "الآن" دون مساءلة الحاضر الذي انطلاقاً منه، نفترض أننا نملك القدرة على أخذ منظور مشروع عن تعاقب كرونولوجي<sup>5</sup> ومثل هذا الاقتراح يكشف إلى أي مدى كانت البادئة فضفاضة وقاصرة .

من جانب آخر، يشير هومي.ك. بابا (H.K.Bhabha) إلى أن البادئة ما بعد "تجسد الطاقة القلقة المنطوية على المراجعة وإعادة النظر"<sup>6</sup> ولعل التعقيد سيزداد حينما يتعلق الأمر بمصطلح "ما بعد الكولونيالية" ، فالـ"ما بعد" توحى في ظاهر الأمر بالقطيعة والانفصال بين ما هو (كولونيالي) وما هو (غير كولونيالي) كما لو كانت تعلن انتهاء الوضع الكولونيالي، لكن واقع الأمر خلاف

ذلك؛ نظراً لكونها، أي ما بعد الكولونيالية، ليست مؤشراً تاريخياً يراد به التعاقب، وإنما مؤشّر نظريّ متعلّق عند كثير من النقاد باستمراريّة وحضور الكولونياليّة في منظومات وأشكال بديلة أو متخفّية. ولئن كان الأمر على هذا النحو، فليس من الغريب أن تكون الوظيفة الأولى التي يجب تضطلع بها النظرية حسب "ليلا غاندي" (L.Ghandi) هي "تذكّر واستدعاء الماضي الكولونيالي باستمرار"<sup>7</sup> ولعلّ هذا الرأي سيجد له سنداً قوياً في طروحات من قبيل "الإمبريالية الجديدة" و"العملة الاقتصادية" والكولونيالية الجديدة (Neocolonialism) هذا المصطلح الأخير، الذي صاغه الرئيس الغاني "كوامي نيكروما" (K.Nkrumah) في كتابه "الكولونيالية الجديدة: المرحلة الأخيرة للإمبريالية" وتعني الكولونيالية الجديدة، كما جاء في موسوعة السياسة: "فرض السيطرة الأجنبية سياسياً واقتصادياً وثقافياً على دولة مع الاعتراف باستقلالها وسيادتها ودون اعتماد أساليب الاستعمار التقليديّة، وأهمّهما الاحتلال العسكريّ، ويطلق على هذا الاحتلال الإمبريالية الجديدة"<sup>8</sup> ولذلك، فمن الخطأ - في ظلّ طروحات النظرية - الاعتقاد بأن التحرّر من السطوة المباشرة أو المادية علامة على أفول الكولونياليّة. ومن هنا أيضاً، كان ارتباط ما بعد الكولونياليّة بفكرة استمرار الوجود الكولونياليّ لا بزواله، فبالنسبة لروبرت يانغ-مثلاً - تتبع أهمية ما بعد الكولونيالية من كونها تضيء حالة الاستعمار الحديث، والوضعيات الجديدة لدول العالم غير الغربيّة، يقول يانغ "وما هو مهمّ أنّ ما بعد الكولونياليّة، تنطوي، وقبل كلّ شيء، على حجّة ترى أن دول القارات الثلاثة غير الغربية (إفريقيا-آسيا-أمريكا اللاتينية) تعاني بشكل واسع من تبعيّة للدول الغربية، وفي موقع غير متساو اقتصادياً لها"<sup>9</sup> والأمر نفسه لدى هومي بابا إذ تمثّل ما بعد الكولونياليّة بالنسبة إليه "تذكرة مفيدة بالعلاقات الكولونياليّة الجديدة، المتواصلة ضمن النظام العالميّ الجديد، وبتقسيم العمل تقسيماً متعدداً قومياً"<sup>10</sup>.

وإذا كان ثمة رأي يذهب إلى أن النزوع نحو تحرير المستعمر من قيود المستعمر، مسألة شغلت الإنسان منذ أبعد العصور وقديمة قدم الوضع الكولونيالي نفسه، وأنه لا ينبغي افتراض أن مناهضة الكولونيالية قُصرت على عصرنا؛ فالسؤال البارز ههنا: ما الجديد الذي تقدّمه النظرية ما بعد الكولونيالية؟

للإجابة عن هذا السؤال، يلفت "بيل أشكروفت" وأصحابه النظر إلى أنه "لم يسفر دوماً إدراك حقيقة خضوع غالبية دول العالم لتأثير الإمبريالية الأوربية في القرن التاسع عشر بدرجة ما عن فهم للتأثيرات المستمرة للنفوذ الكولونيالي، والكولونيالي الجديد. ومع ذلك فأسلوب تحليل ما بعد الكولونيالية يُظهر بشكل متزايد طبيعة علاقات القوة المتوارثة وأثرها، وكذا تأثيراتها المستمرة على الثقافة العالمية والسياسة الحديثة"<sup>11</sup>.

ومن هذه الزاوية، فإن أهمية النظرية تكمن في توسيع مجال النقد وقلب المواقع، وإعادة النظر في المفاهيم والعلاقات التي كرستها المنظومة الإمبريالية، وكذا في خلق استراتيجيات مواجهة تتكئ على ترسانة عريضة من المناهج والمقولات والرؤى الفلسفية والنقدية الحديثة، هدفت من خلالها إلى تفكيك العلاقات المعقدة المتعلقة بالمنطق الإمبريالي وخطاباته.

وبناءً على ما تقدم ذكره، يمكن القول إنه إذا كان للنظرية -بشكل عام- من جوهر، فهو إخضاع كل ما تعلق بالإمبريالية وما تفرزه من: (خطابات، وأنظمة، وتمثيلات، وسياسات، وممارسات، وانعكاسات..) إلى السؤال والمراجعة والتفكيك، ومن هنا، فقد انقلبت المواقع والأوضاع، بصورة جذرية؛ حيث أصبح المستعمر -بعد أن كان الفاعل والناظر- موضع النظر والدراسة والمساءلة من طرف المستعمر.

## 2- السياقات التاريخية لنشأة النظرية ما بعد الكولونيالية:

يفترض البحث في ما بعد الكولونيالية الإشارة إلى الظروف والأوضاع السياسية التي نمت في ظلها وتبرعمت، ولا يخفى أن الأمر يكتنفه التعقيد والالتباس؛ نظراً لما واكبته -النظرية- من محطات وما شهدته من تحولات.

يذهب غالب الدارسين إلى أن مفهوم ما بعد الكولونيالية لم تبلور دلالاته إلا في سبعينيات القرن العشرين، ويقصدون تحديداً عام (1978) الموافق لصدور كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، فجماعة أشكروفت -مثلاً- ترى أن "دراسة قوة التمثيل المسيطرة داخل المجتمعات المستعمرة انطلقت أواخر السبعينيات بأعمال مثل كتاب "الاستشراق" لسعيد، وأفضت إلى تشكيل ما عُرف لاحقاً باسم نظرية الخطاب الكولونيالي في أعمال نقاد من أمثال "سبيفاك، وبابا"<sup>12</sup>.

بيد أن هناك من يرجع بمنابت النظرية لا إلى كتاب الاستشراق، وإنما إلى محطات زمنية أخرى كان لها تأثير بعيد المدى، على نحو ما نقع عليه لدى حميد دباشي في حديثه عن دور المرحلة الاستعمارية نفسها، يقول عنها "ولدتنا فكرياً بدءاً من سيزر مروراً بفانون وحتى سعيد"<sup>13</sup> أو كما عند كلٍّ من جون-لو أمسال (Jean-Loup Amselle)<sup>14</sup> وروبرت يانغ حينما ربطا النظرية بمحطتين بارزين هيئتا لظهورها، وهما:

1- فعاليات مؤتمر باندونغ<sup>15</sup> (Bandung Conference) المنعقد عام (1955) ويمثل بالنسبة ليانغ التّوة الأولى لنظرية ما بعد الكولونيالية، يقول: "من نواحٍ عدّة، يُعدّ مؤتمر باندونغ أصل ما بعد الكولونيالية باعتبارها فلسفة سياسيّة واعية"<sup>16</sup> إضافة إلى ما أداه المؤتمر من دور في تعزيز نضال شعوب إفريقيا وآسيا من أجل تصفية الاستعمار، ودحر شتى أشكال وجوده، كان مُهدداً قوياً لصعود سياسات وحركات مناهضة، من ضمنها: "التضامن الأفرو-آسيوي" (A-F S) و"حركة عدم الانحياز" (NAM).

أمّا المحطة الثانية، فهي:

2- مؤتمر القارات الثلاث (Tricontinental Conference): شكّل المؤتمر المنعقد بالعاصمة الكوبيّة هافانا عام 1966 منعطفاً هاماً في حياة النظرية، إذ أسفر عن "نشر مجلة بالاسم نفسه (Tricontinental)، اشتملت للمرّة الأولى، على كتابات منظرّي ما بعد الكولونيالية، جنباً إلى جنب؛ مع نشاطات كلٍّ من: أميركال كابالر (Amílcar Cabral)، فرانز فانون (Frantz Fanon)، تشي غيفارا (Che Guevara)، وهوشي منه (Ho Chi Minh)، جون بول سارتر (J.P.Sartre)... وجهوا نقدهم على المستوى الإبتيمولوجي صوب المعرفة، باعتبارها وليدة الهيمنة الغربيّة"<sup>17</sup> ومن هنا، فأهميّة المجلّة تكمن في المصاهرة بين النشاطات السياسيّة والتوجّه المعرفيّ النقديّ، أو بتعبير أدق، في كونها فتحت الأفق لتوسيع دائرة النقد لدى تلك الجماعة.

في السياق نفسه، يشيد فرانز فانون بحركات التحرّر التي شهدها القرن الماضي، وبالنسبة إليه "لا يعتبر القرن العشرون قرن الاكتشافات الذريّة والاختراعات الفضائيّة فقط؛ فهناك انقلاب آخر تمّ في هذا العصر، هو ولا شك استرجاع الشعوب للأراضي التي تملكها"<sup>18</sup> ففي هذا القرن وما حمله من

انقلابات، على حد تعبير فانون، لاقت النظرية تربة خصبة، وبعبارة أخرى، نستعيرها من إدوارد سعيد فقد "اندفعت الكراهيات التي كانت تغلي لزمن طويل ضدّ الرجل الأبيض، من المحيط الهادي إلى الأطلسي، مُتحوّلةً إلى حركات استقلال تامّة النموّ ناضجة، وانبثق دعاة وحدة إفريقيّة وآسيويّة لم يكن ممكناً إيقافهم وصدّهم"<sup>19</sup> ولذلك كلّه، فلا غرو من اعتبار القرن الفائت مجالاً ومنياً فارقاً بالنسبة للنظرية.

وبالعودة إلى يانغ، نجد من جملة الإشارات الطريفة، التي تلفت النظر في كتابه المشار إليه، تلك المستندات والاقتراسات والصور التي ترصد سياقات نشأة خطاب ما بعد الكولونيالية، وأهمّها، سياق الحروب التي فتكت بإفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، باعتبارها النواة الكبرى التي بلورت خطاب النظرية، ومن هذه النقطة تحديداً يكتسي الكتاب أهميته، ففي بحثه، لا يُهمل يانغ دور السياق التاريخي، ولا يهمله، بل، يجعله شرطاً ضرورياً لتوضيح وضعيّة النظرية بين الحاضر والأمس.

نجم عن الأوضاع السابقة، عامل آخر، يجده يانغ شديد التأثير، وهو حركة الهجرة والشتات التي تصاعدت بعد الحرب العالميّة الثانية، إذ يرى أنها لعبت دوراً حاسماً في تكوين النظرية ما بعد الكولونيالية، لأن الذين أرسوا مبادئها، نزوحوا من أصول إفريقية، وآسيوية، ولاتينية أي غير غربيّة.

### 3-دراسات الزنوجة وإعادة كتابة التاريخ:

عرف القرن العشرون جيلاً من المفكرين والناشطين مثل "إيمي سيزار" (Aimé Césaire) و"ليوبولد سنغور" (Léopold Senghor) وهربرت ماكولاي (Herbert Macaulay) وفانون شغلتهم قضايا العرق، والهويّة، والتاريخ، والآخر، والهيمنة، والجنوسة، والرّق، والتمثيل.. فحاضوا حربهم لصدّ اقتلاع الجذور الذي مارسه المنظومات الغربيّة.

ظلت أعمال هؤلاء متجدّدة المضمون، متوهّجة الروح، أهدت من جاءوا بعدهم، وشكّلت قاعدة خصبة نلمس تجلياتها وآثارها بوضوح في الكتابات ما بعد الكولونياليّة المعاصرة، بل من النادر أن نعثر على متن نقدي ما بعد كولونياليّ يخلو منها، سواء من باب الاقتباس والإشارة أو من باب المحاورّة والتوسيع والتعميق، لتكون بذلك، إحدى أهمّ المرجعيّات التي اتّكأت عليها النظرية وتسلّحت بها.

إنّ بعض المسائل التي تصدّى لها هؤلاء، أو النقد الأمريكي الإفريقي، هي المسائل نفسها التي أثارها سعيد وهومي بابا وسيفاك، وناقشوها من زوايا أوسع، وبذلك نقلوا مسائل الكولونيالية والإمبريالية إلى آفاق جديدة، حيث توسّعوا في طروحاتهم وطعموها بالفتوحات المنهجية والنقدية المعاصرة.

يناقش سعيد في الفصل الموسوم في كتابه "الثقافة والامبريالية"، أدوار إيميه سيزار، وفرانز فانون، ونغوغو وأئينغو، وغيرهم من الذين شكّلت خطاباتهم -حسب تعبير سعيد- صدمة للآخر الغربي الذي "لا يتعرّض فقط للمخاطبة من قِبَل أصلايين فيما جيشه منحرف في الحرب ضدهم، كما لم يتعرّض أحد من أسلافه، بل إنّه يقرأ أيضاً بلغة بوسويه وشاتوبريان، ويستخدم مفاهيم لهيغل وماركس وفرويد من أجل تجريم عين الحضارة التي أنتجتهم"<sup>20</sup> ويتبيّن هؤلاء مناهج ومفاهيم جديدة في علم النفس والاقتصاد والحضارة تجاوز الطروحات التقليدية وتكشف عن استبصار أعمق لقضية الاستعمار الغربي في العالم الشرقي وفي إفريقيا على وجه الخصوص.

وضمن منطلق المناهضة هذا، كان من بين أهداف بعض المؤرّخين والأنثروبولوجيين وباحثي الفلكلور، أو من بين المسائل التي شغلت اهتمامهم الخروج من إسار التاريخ المكتوب بعيون "الذات الأوربية التي توّد لنفسها أن تبدو في صورة المنقذة ورافعة لواء الحضارة والمدنية، ولتغطي قبح نواياها الاستعمارية فقد أصرت على أن تبدي الآخر راجيا مساعدتها ناشداً نجدتها"<sup>21</sup> فلفتوا الانتباه إلى المزالق والمخاطر المرتبطة بكتابة التاريخ من وجهة نظر غربية، واضطلعوا حسب تعبير هومي بابا بتأصيل تواريخ الاستغلال، وتطوير استراتيجيات المقاومة<sup>22</sup>، وراهنوا على مراجعة التاريخ ومفاهيمه، ونادوا بضرورة تحريره من سلطة الآخر، وكذا إعادة كتابته واستنهاضه من مواقع جديدة، بل ومضادة تماماً لما كتبه الغربي وطمس أجزاء عظيمة منه، وحشاه بشتى ألوان التحريف.

يرى سعيد أن الغربيين قد "رأوا إفريقيا، تماحكيًا، مكاناً فارغاً حين اغتصبوها، أو افترضوا بدهاء وجودها في متناولهم حاملة مُستسلمة حين تأمروا على تقسيمها في مؤتمر برلين في 1884-1885. فقد وجد الأفارقة المفكّكون للاستعمار ضرورياً أن يتخيّلوا إفريقيا من جديد مُعرّاة من ماضيها الامبريالي"<sup>23</sup> ولعل أول المسؤوليات التي وضعها هؤلاء على عاتقهم، هي تقويض الصوّر التي كرسها

الأنثروبولوجيا الإمبريالية والآداب والرحلات والثقافة وكلّ أنواع السرد الكولونيالي القائمة على نزعة جوهرانية (Essentialisme) - مثقلة بالاستعلاء - ترى سمات في الغرب تختلف تمام الاختلاف عن الشرق، وتفرض بالتالي تطوّر الإنسان الغربيّ الأوروبي وتفوّقه دون غيره، إذن ما هي هذه الكتابات المضادة؟

لقد توزّعت هذه الأعمال بين حقول معرفية متباينة، فشملت الجغرافيا، والأنثروبولوجيا، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، والأدب... ومن ضمنها ما كتبه كل من: "كينيث دايك" (Kenethe.O.Dike) و"دفيد ديوب" (David Diop) و"ليون داماس" (Léon Damas) ومن أهم الكتب التي خطت خطوات متقدمة فيما بعد كتاب روح الشعب الأسود (The souls of Black Folk) لوليام ديبويو (W.E.B.Dubois)، وكتاب تصفية الاستعمار، ونقد العقل الزنجي لغوغني واثنغو. وفي خطوة مبكرة، نادى كل من السينغالي "الشيخ أنتا ديوب" (C.A.Diop) والكونغولي "تيوفيل أوبينغا" (T.Obenga) والنيجيري "أجابي" (J.F.Ade Ajayi) بالاعتماد على مصادر ومرجعيات إفريقية من أجل الدفاع عن الحضارة الإفريقية وكتابة تاريخها، وإلقاء الضوء على الأمم الزنجية من منظور بعيد عمّا نسحته المركزية الغربية ورسّخته منظوماتها الثقافية والتاريخية، انطلاقاً من رؤية فحواها، أن إفريقيا تاريخها الخاص والغرب مجرد طارئ؛ لأنّ "الاستعمار الغربيّ ليس سوى حلقة صغيرة من تاريخ إفريقيا الكبير، وليست - أبداً - أهم من باقي الحلقات الأخرى"<sup>24</sup>.

ويجمل أن نشير، ههنا، إلى أن هذه الإسهامات لم تقصر دورها على المراجعة والتصحيح فحسب، وإنما امتدت إلى أبعد من ذلك - بشيء من الحدة - حيث ردّت الحضارات البشرية قاطبة إلى جذور إفريقية، ولعل من أبرز الأعمال في هذا السياق كتاب أنتا ديوب "الأمم الزنجية والثقافة"<sup>25</sup> Nations nègres et culture وعمل مارتن برنال (M.Bernal) الشهير "أثينة السوداء"<sup>26</sup> «Black Athena» وسوى ذلك من المشاريع التي ردّت على مزاعم الغربيين الذين عزوا الحضارة الإنسانية بمجملها إلى إنجازات الأبيض المتفوّق.

## 4- إدوارد سعيد ولحظة التأسيس

أحدث إدوارد سعيد تحولاً هائلاً في فكر ما بعد الكولونيالية، فصاحب كتاب "الإستشراق" ونتيجة جهوده البارزة في المجال، يُعدّ بلا شك، أول أقطاب النظرية وأبرز مؤسسيها. وعن التأثير البالغ الذي أحدثته كتابه الاستشراق يُقرّ روبرت يانغ بأنه "ليس من التزيّد القول بأنّ الكثير من الضغط الحالي بالنسبة للسياسي، وخاصة في الولايات المتحدة حيث لا يوجد تراث ضخم حديث للنقد السياسيّ منبعه كتاب إدوارد سعيد"<sup>27</sup> ويمكن أن نعزو هذا التأثير، إلى مدى كشف الكتاب عن العلاقات الخفية التي تجمع بين أشكال المعرفة الغربية بمؤسساتها -من ضمنها الاستشراق- من جهة، والمؤسسات الإمبريالية والعسكرية، من جهة أخرى، باعتبار أن الأولى عملت على اختراع الشرق أو الآخر، بصور مختلفة، ثم سوّغت للثانية الهيمنة عليه.

لقد انخرط سعيد في مشروع دؤوب لتشريح الكيفيات التي تحضر بها السلطة في شتى مستويات الخطابات على اختلاف ألوانها من أدب وسياسة وتاريخ، وبسبب الارتباط الوثيق بين النظرية وتحليل "الخطاب الكولونيالي" الذي يشكل حصيلة ما "بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية، إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب على أساس أن ذلك النتاج يشكل في مجمله خطاباً متداخلاً بالمعنى الذي استخدمه فوكو لمصطلح الخطاب"<sup>28</sup> فقد سعى سعيد استناداً إلى ميشيل فوكو، حين جعل منه دعامة استراتيجية في تحليله الاستشراق، وفي نقده الخطاب الكولونياليّ، إلى تأسيس نقد جديد، يقول سعيد: "لقد انتفعت بالفكرة التي طرحها ميشال فوكو عن الخطاب، على نحو ما عرضها في كتابه "علم آثار المعرفة" وكتابه الآخر "التأديب والعقاب" في تحديدي لمعنى الاستشراق"<sup>29</sup>.

فمثلما نظر فوكو في الصلة القائمة بين ما هو خطابي وما هو إيديولوجي كذلك نظر سعيد إلى هذه الصلة في إطار العلاقات الكولونيالية.

غنيّ عن البيان أن سعيد كان "يستخدم كافة خبراته النقدية والروافد المعرفية التي اكتسبها من تراث فكري غربي يمتد في تنوعه ليشمل مفكرين مثل فيكو، وماركس وغرامشي وأورباخ ويطوع بعض أفكارهم على اختلافها وتناقضها أحيانا ليصنع مزيجاً الخاص ويوظفه في خدمة معركة اختار أن

يكون إسهامه فيها مركزاً حول قضية التمثيل، ودور الأرشيف الثقافي المعتمد على هذا التمثيل، في تعزيز الهيمنة الاستعمارية وضمن استمرارها<sup>30</sup> وغني عن البيان كذلك، أن كتاب الاستشراق مثلاً لحظة مفصلية في تاريخ النظرية ما بعد الكولونيالية، ونحضر بدور رئيس فيها، ولم تقتصر أهميته على تفكيك منظومة الاستشراق فحسب، بل إن أهميته الكبرى تكمن في فتحه لأبواب مختلفة وإشارته إلى أهمية الجغرافيا والمؤسسة والسلطة في صناعة شتى التمثيلات.

لم يُمهّد إرث سعيد فقط؛ لنشأة دراسات ما بعد الكولونيالية، وإنما كان عاملاً قوياً في تطوير الدراسات اللاحقة، أين استلهمه النقاد والباحثون في فروع أخرى، ولذلك فكتاب الاستشراق كان أحد أهم منطلقات في النظرية المعاصرة.

## 5-دراسات التابع

يُنظر إلى دراسات التابع (Subaltern Studies) التي ازدهرت في مطلع الثمانينات، على أنها أحد أهمّ الميادين المركزيّة في النظرية ما بعد الكولونيالية، وقد شكّلت -بالفعل- نتيجة ما حقّقت من كشوفات نقدية متعلّقة بالتاريخ والتمثيل، لحظةً حاسمة في تاريخ النظرية.

ومن الأهمية بمكان أن نشير بدءاً، إلى أن هذه الدراسات قد استلهمت بعض المفاهيم والرؤى التي اجترحها المفكر الإيطالي الماركسي "أنطونيو غرامشي" (A.Gramsci) حول قضايا التابع والهيمنة، ويعني التابع عنده تلك "الجماعات التي تقع تحت هيمنة الطبقات الحاكمة داخل المجتمع، وتشمل الطبقات المهمّشة من المزارعين والعاملين وغيرهم من الجماعات التي تحرم من الوصول إلى السلطة المهمة، وبما أن تاريخ الطبقات الحاكمة يتحقّق في إطار الدولة، والتاريخ من هذا المنطلق هو تاريخ الدول والجماعات المهمة فقد كان غرامشي معنياً بكتابة تاريخ الطبقات المهمّشة"<sup>31</sup>.

اقتنص المؤرّخ الهندي "رانا جيت غوها" (R.Guha) هذا التصور، وطوّره من أجل البحث بشكل واسع في تاريخ الهند وجنوب آسيا إبان الاحتلال البريطاني، وفتح ملفّات كتابة التاريخ والماركسية والقومية ووضع الهامش، رفقة مجموعة من الباحثين هم "شاهد أمين" (Shahid Amin) ديفيد أرنولد (David Arnold)، غوتام بدرا (Gautam Bhadra) جيان براكاش (Gyan Prakash) سوديتا كافيراج (Sudipta Kaviraj)، غياتري شاكراפורتي سبيفاك (Gayatri Chakravorty Spivack)،

سوزي ثارو (Suisie Tharu)، سُميت سرکار (Sumit Sarkar)، أجاي سکاريا (Ajay Skaria)<sup>32</sup> سعی هؤلاء إلى نقد التاريخ النخبوي، وعملوا على تشييد "مقاربة في كتابة التاريخ مناهضة للنخبوية، وكانت في هذا الجانب تتقاسم الكثير مع مقاربات التاريخ من أسفل"<sup>33</sup>.

وبالنسبة للمنظر الهندي ديبش شاکرابارتي (Dipesh Chakrabarty) فإنّ دراسات التابع بوصفها أحد أهمّ مشاريع ما بعد الكولونيالية قد تأسّست في المقام الأول على "كتابة التاريخ"<sup>34</sup> حيث ركّزت جهودها على إعادة كتابة التاريخ بعيداً عمّا خطّه المؤرّخ الكولونيالي، بل بعيون التابع المُهمّش من خلال كشف أدوار القطاعات الريفية من فلاحين ونساء في تاريخ المرحلة الكولونيالية. وفي مقالتها هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ (Can the Subaltern Speak) وجمّعت المنظرة الهندية البارزة غياتري سيفناك نقداً قوياً إلى غياب قضايا الجندر عن دراسات التابع، وشدّدت على ضرورة إعادة تفحص دور المرأة وأوضاعها في الخطابات السابقة، وأكدت أن إلقاء الضوء عليها وإبرازها، جزء من المهام النظرية والعملية الواجب إنجازها.

## 6- النظرية والموقع الملتبس:

معلوم أن النظرية تعرّضت، منذ نشأتها، لصور متعددة من الانتقاد والتبرم، فعلى غرار مقولات نهاية التاريخ، ونهاية الميتافيزيقا، وموت الذات، وموت الفلسفة... تصاعدت في العقدين الأخيرين أصواتٌ تنادي بموت نظرية ما بعد الكولونيالية وتعلن اندثارها<sup>35</sup> وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أنّها غالباً ما كانت مضطربة المحمول السياسي، وهشّة المقوّمات الثقافية والمعرفية، فهي، في نظرهم لا تعدو أن تكون مجرد نسخة عن الفلسفة الفرنسية.

في حقيقة الأمر، لا يمكن تصوّر ازدهار النظرية خارج الإرث الغربيّ على المستوى المعرفي والمنهجي، وقد ظلّت مدينة بشكل كبير إلى تيارات ما بعد البنوية، كالتفكيك، والتحليل النفسي، وتحليل الخطاب، وحسب تعبير بارت مور جيلبرت (Bart Moore-Gilbert) تمثّل ما بعد الكولونيالية في الأساس "عملاً شكّله في المقام الأول- أو لنقل بدرجة كبيرة- انتماءات منهجية تنتسب إلى النظرية الفرنسية العليا، لا سيما كل من جاك دريدا (J.Derrida) وجاك لاكان (J. Lacan) وميشيل فوكو

(M.Faucault)<sup>36</sup> وبعبارة أدق، فقد استُشِرت الفتوحات المنهجية والمعرفية لما بعد البنيوية من طرف رواد ما بعد الكولونيالية أين تفاعلوا معها بصور مختلفة.

وبموجب التفاعلات السابقة، ينظر البعض إلى النظرية بعدم الارتياح، ويرون أنه من الخطر بمكان، بل من التهافت، توظيف المنجز الغربي في خطاب ما بعد الكولونيالية، ويتضمن هذا النقد إحاء سلبيا بسطحية النظرية وكونها مجرد موضة. تردّ سيفياك على أصحاب هذا الرأي، استناداً إلى مفهوم التفاوض (Negotiation) المستمر، ويعني أن "الخصم يجب أن يُجارب على أرضه وبأساليبه، على الأقل كخطوة أولية، وفي تفسير لها عن مفهوم التفاوض تقول سيفياك: كل ما أعنيه بالتفاوض هنا، هو أن يحاول المرء تعديل شيء فرض عليه، لأنه مرغّم على الإبقاء على تلك البنيات ولا يستطيع قطعها تماماً، وهذا، من منطلق فهمي هو التفاوض"<sup>37</sup>.

وهكذا، فإن النظرية لم تنصهر تماماً في فتوحات ما بعد البنيوية، وإنما استثمرتها وكتفتها، بل؛ غالباً ما كانت ترتدّ ضدها من أجل خدمة أسئلتها وقضاياها، وبمعنى آخر، فإنها كثيراً ما كانت تعمل بجانب وضدّ تلك الفتوحات في الوقت نفسه.

وانطلاقاً من افتراضات أخرى، أبرزها كون النظرية عاجزة عن التصدي للتحديات والتبدلات الشاملة التي طرأت في الساحة العالمية على الصعيد السياسي، والاجتماعي، والتقني، فقد أمسى سؤال شرعيتها يطرح اليوم بحدة.

لا تفتقر هذه الطروحات إلى معارضين، يأتي في مقدمتهم روبرت يانغ، الذي شدّد بدفاعه الحار على ما تتماز به النظرية من اتساع أفق ومرونة منهج، وراح يستبعد موتها، مؤكداً فاعليتها وقدرتها على مجابهة التحولات المستجدة على الساحة العالمية؛ من خلال خصوبتها وإمكاناتها على اجتراح استراتيجيات تفكك التبدلات الراهنة، فبالنسبة ليانغ "لا تشكل ما بعد الكولونيالية مجرد حقل تخصصي، أو نظرية انتهت أو لم تنته. بل هي على عكس من ذلك، إذ دائماً ما كانت أهدافها منخرطة في مشاريع سياسية واسعة النطاق من أجل إعادة بناء تشكيلات المعرفة الغربية، وإعادة توجيه المعايير الإيطيقية، وقلب بنى القوة العالمية رأساً على عقب، وإعادة تشكيل العالم من أسفل"<sup>38</sup> وأما عن أسباب الهجوم الذي تعرّضت له النظرية، فيعزوها يانغ إلى شدة تأثيراتها، يقول: "توحي الرغبة

في إعلان موت النظرية ما بعد الكولونيالية في كلا جانبي الأطلسي بأن حضورها يستمر في الإزعاج وإثارة القلق<sup>39</sup>

وعليه، يمكن القول، في الأخير، إن النظرية ما انفكت -طوال مسارها العريض- تمارس صدمتها المتجددة، وتطوّر نقدها الجادّ ضدّ كل نزعة تمركزية أو دوغمائية أو استعلائية، وطالما عملت على نبذ الهيمنة ومناهضة الامبريالية والسلطة والهيمنة مهما اختلفت صورها سافرة كانت أم متخفية، وكل ذلك، كان من مواقع آمنت بالإنسان وراهنّت على تحرّره.

## الهوامش والإحالات:

<sup>1</sup> -Robet J.C. Young, Postcolonialism a very short introduction, Oxford university press, 2003, p16

<sup>2</sup> - هيلين جلبرت وجوان تومكينز: الدراما ما بعد الكولونيالية-النظرية والممارسة، ترجمة سامح فكري، مركز اللغات والترجمة-أكاديمية الفنون، ط1، القاهرة، 2000، ص4.

<sup>3</sup> - Frederic Cooper, Le Colonialisme en questions, Théorie connaissance histoire, traduit par Christian Jeanmougain, Ed Payot, Paris, 2010, P40.

<sup>4</sup> - إيهاب حسن: تحولات الخطاب النقدي لما بعد الحداثة، ترجمة: السيّد إمام، دار الرافدين، ط1، بيروت، 2018، ص12.

<sup>5</sup> - جان فوننسا ليوتار: في معنى ما بعد الحداثة نصوص في الفلسفة والفن، ترجمة السعيد لبيب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط1، 2016، ص70.

<sup>6</sup> - هومي بابا: موقع الثقافة، ترجمة تائر ديب، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1، 2006، ص44.

<sup>7</sup> - ليلا غاندي: نظرية ما بعد الكولونيالية، ترجمة لحسن أحمامة، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط1، السعودية، 2021، ص24.

<sup>8</sup> - عبد الوهاب الكيالي وآخرون: الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1985، ج1، ص176.

<sup>9</sup> - Robet J.C. Young, Postcolonialism a very short introduction, p17.

<sup>10</sup> - هومي بابا: موقع الثقافة، ص85.

<sup>11</sup> بيل أشكروفت، وجاريف جريفيث، وهيلين تيفين: دراسات ما بعد الكولونيالية (المفاهيم الرئيسية)، ترجمة أحمد الدروي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، ص43.

- 12- دراسات ما بعد الكولونيالية (المفاهيم الرئيسية)، مرجع سابق، ص283.
- 13- حميد دباشي: هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟ ترجمة عماد الأحمد، منشورات المتوسط، ط1، إيطاليا، 2016، ص22.
- 14- راجع: J.L.Amselle, Au-delà en deca du postcolonialisme, Les Temps Modernes, n°603, 2018, pp76-84.
- 15- هو مؤتمر تاريخي عُقد في مدينة باندونغ الاندونيسية خلال الفترة الواقعة بين الثامن عشر من نيسان-أبريل 1955 والرابع والعشرين منه، وذلك لبحث الأهداف المشتركة بين الدول التي حضرته وبلغ عددها 29 دولة إفريقية وآسيوية، أما الدول الغربية فقد استبعدت منه كلياً وإن كانت قد مثلت بمندوبين غير رسميين. ينظر: عبد الوهاب الكيالي وآخرون: موسوعة السياسية، ص490-491.
- 16 - Robet J.C. Young, Postcolonialism a very short introduction, p17.
- 17 Ibid, p17-18.
- 18- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، ترجمة محمد المليي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، (دت)، ص122.
- 19- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، منشورات دار الآداب، بيروت، ط4، 2014، ص255.
- 20- المرجع نفسه، ص256.
- 21- مديحة عتيق: فصول في الأدب المقارن، دار ميم للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2011، ص120.
- 22- هومي بابا: موقع الثقافة، ص47.
- 23- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ص268.
- 24 - Frederick Cooper, Le colonialisme en question (Théorie, connaissance, histoire) Traduit de l'anglais par Christian Jean mougin, Ed Payot, Paris, 2010, p63.
- 25- ترجم حليم طوسون أجزاء من الكتاب تحت عنوان "الأصول الزنجية للحضارة المصرية" صدرت عن دار العالم الثالث.
- 26- الكتاب لمارتن برنال يبحث في الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ترجمة: نخبة من الأساتذة الجامعيين، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2014.
- 27- روبرت يانغ: أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب، ترجمة أحمد محمود، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2003، ص269.
- 28- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء-بيروت، 2002، ص158.
- 29- إدوارد سعيد: الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006، ص46.
- 30- رضوى عاشور: الصوت، فراز فانون، إقبال أحمد، إدوارد سعيد، ألف مجلة البلاغة المقارنة، ع25، 2005، ص80.
- 31- المرجع نفسه، ص319.
- 32- ديبش شاكرابارتي: دراسات التابع والتأريخ ما بعد الكولونيالي، ترجمة: ثائر ديب، أسطور للدراسات التاريخية، ع3، يناير 2016، ص8.
- 33- المرجع نفسه، ص12.
- 34- المرجع نفسه، ص8.

<sup>35</sup> - من ذلك ما أعلنت عنه جمعية اللغات الحديثة (PMLA) عام 2007، تحت عنوان: "نهاية النظرية ما بعد الكولونيالية" «The End of Postcolonial Theory».

<sup>36</sup> - بارت مور جيلبرت: ما بعد الاستعمار، السياقات الممارسات السياسات، ترجمة محمد الشحات، مجلة نزوى، عمان، ع86، 2016، ص232.

<sup>37</sup> - شاكرابري سيبنك: دراسات التابع، تفكيك التاريخ، ترجمة سامية محرز، ألف مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة، ع13، 1998، صص132-133.

<sup>38</sup> - روبرت يانغ: بقاء أم بقايا ما بعد الكولونيالية، ترجمة حبيب الحاج سالم، مركز نماء للبحوث والدراسات، ع104، ص3.

<sup>39</sup> - المرجع نفسه، ص4.

## قائمة المصادر والمراجع:

### 1- باللغة العربية:

- 1- إدوارد سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006.
- 2- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، منشورات دار الآداب، بيروت، ط4، 2014.
- 3- إيهاب حسن: تحولات الخطاب النقديّ لما بعد الحداثة، ترجمة: السيّد إمام، دار الرافدين، ط1، بيروت، 2018.
- 4- بيل أشكروفت، وجاريف جريفيث، وهيلين تيفين: دراسات ما بعد الكولونيالية (المفاهيم الرئيسية)، ترجمة أحمد الدروي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010.
- 5- جان فرونسوا ليونار: في معنى ما بعد الحداثة نصوص في الفلسفة والفن، ترجمة السعيد لبيب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط1، 2016.
- 6- حميد دباشي: هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟ ترجمة عماد الأحمد، منشورات المتوسط، ط1، إيطاليا، 2016.
- 7- روبرت يانغ: أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب، ترجمة أحمد محمود، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2003.
- 8- ليلا غاندي: نظرية ما بعد الكولونيالية، ترجمة لحسن أممامة، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط1، السعودية، 2021.
- 9- عبد الوهاب الكيالي وآخرون: الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1985.
- 10- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، ترجمة محمد المليي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، (دت)،
- 11- مديحة عتيق: فصول في الأدب المقارن، دار ميم للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2011.
- 12- ميحان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء-بيروت، 2002.
- 13- هومي بابا: موقع الثقافة، ترجمة ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1، 2006.
- 14- هيلين جلبرت وجوان تومكينز: الدراما ما بعد الكولونيالية النظرية والممارسة، ترجمة سامح فكري، مركز اللغات والترجمة- أكاديمية الفنون، ط1، القاهرة، 2000.

### 2- باللغة الأجنبية

15-Robet J.C. Young, Postcolonialism a very short introduction, Oxford university press, 2003.

16- Frederick Cooper, Le colonialisme en question (Théorie, connaissance, histoire) Traduit de l'anglais par Christian Jean mougin, Ed Payot, Paris.

17- J.L.Amselle, Au-delà en deca du postcolonialisme, Les Temps Modernes.

### 3-المجالات والدوريات

- 18- رضوى عاشور: الصوت، فراز فانون، إقبال أحمد، إداورد سعيد، ألف مجلة البلاغة المقارنة، ع25، 2005.
- 19- شاكرابري سيفاك: دراسات التابع تفكيك التاريخ، ترجمة سامية محرز، ألف مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة، ع13، 1998.
- 20- روبرت يانغ: بقاء أم بقايا ما بعد الكولونيالية، ترجمة حبيب الحاج سالم، مركز نماء للبحوث والدراسات، ع104.
- 21- بارت مور جيلبرت: ما بعد الاستعمار، السياقات الممارسات السياسات، ترجمة محمد الشحات، مجلة نزوى، عمان، ع86.